في ماهية الثقافة ومميزاتها (بين كونية "تايلر" ونسبية "بوا")

On the essence of culture and its characteristics (between Edward Tylor's universality and Franz Boa's relativity)

نجمة قرواز *

جامعة محمد الصديق بن يحي- جيجل (الجزائر) kerouaznedjma@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/07/16 تاريخ القبول: 2024/09/10 تاريخ النشر: 2024/09/30

Abstract: Although the concept of "culture" in its comprehensive meaning refers to different forms of life and thought, defining it precisely remains challenging due to the complexities and intricacies of its aspects. Each researcher in the field of cultural studies offers a different perspective. This is represented in the views of social scientists Edward Burnett Tylor and Frands Boa, who presented two distinct visions of "culture" due to the divergence in their conceptual approaches. The first vision was more universally oriented, while the second was relatively more specialized. This study aims to uncover the essence of these two perspectives

Keywords: Culture; Universal; Relative; Tylor; Boa.

الملخص:

على الرغم من أن مفهوم <<الثقافة >> في معناه الشامل يشير إلى مختلف أشكال الحياة والفكر، إلا أن الاتفاق على مفهوم دقيق جامع مانع يعد من الأمور المستعصية والأشد عسرا، نظرا للاختلافات البحثية المتعلقة بمسألة التنوعات الثقافية وخصائصها النوعية، حيث قام كل باحث في مجال اختصاصه بتقديم رؤية مختلفة عن الآخر، ونمثل لذلك بوجهتي نظر الباحثين الاجتماعيين "إدوارد برنات تايلر"، و"فرانز بوا" اللذين قدما رؤيتين مختلفتين لـ<<الثقافة>> بسبب تباين المنحى التصوري المنطلق منه، حيث كان تصور الأول كونيا لها، أما تصور الثاني فكان نسبيا تخصيصيا. وعليه، تهدف هذه المداخلة إلى الكشف عن فحوى هذين التصورين.

الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ الكونية؛ النسبية؛ تايلر؛ بوا.

* نجمة قرواز.

مقدّمة:

لقد حظي مفهوم "الثقافة" باهتمام واسع من طرف الدارسين في مختلف التخصصات، لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية المتعلقة بالدراسات الأنثربولوجية والإثنوغرافية، فنال قيمة كبيرة تجلت من خلال آراء كبار الباحثين الإمريكيين، والألمان، والإنجليز وغيرهم، أمثال: "رايموند ويليامز"، "ماثيو أرنولد"، و"إدوارد برنات تايلر"، وفرانز بوا"، و"كليفورد قيرتز" وغيرهم، وذلك نظرا لتعقيدها وتشعبها، وارتباطها بمختلف أشكال ومظاهر الحياة؛ الفكرية منها والمادية، المتعلقة تارة بالإنسانية ككل، وتارة أخرى بجماعة معينة، وسنركز في بحثنا هذا على نظرتي "تايلر" و"بوا" المختلفتين إلى "الثقافة" ، لكن، قبل ذلك سنتطرق إلى ماهية "الثقافة"في التراثين العربي والغربي لملاحظة مدى الاختلاف والتطور الذي شهده هذا المفهوم باختلاف البيئات والعصور.

1. **ماهية الثقافة:**

1.1. ماهية الثقافة في التراث العربي:

1.1.1. لغة:

"الثقافة" مصدر من مصادر الفعل (ثقُف/ثقِف) بضم القاف وكسرها، ولهذا الفعل في التراث العربي معاني كثيرة، وذلك حسب السياق الذي ورد فيه؛ ففي"القاموس المحيط"، في فصل"الثاء" ضمن مادة "ثقف" جاء ما يأتي: "ثَقُفَ/ثَقِفَ كَكَرُمَ وفَرِحَ، ثَقْفًا وثَقَفًا وثَقَافَةً: صَارَ حَاذِقًا خَفِيفًا فَطِنًا، فَهُوَ ثِقْفٌ" (آبادي، 2005)، "ثَقِفَ الشَّيءَ ثَقْفًا وثِقَافًا وثُقُوفَةً: حَذَقَهُ.وَرَجُلٌ ثَقْفٌ وثَقِفٌ; ثَقُفٌ:حَاذِقٌ فَهِمٌ وأَتْبَعُوهُ فقالوا:ثَقْفٌ لَقْفٌ(...) وثَقِيفٌ لَقِيفٌ بَيِّنُ الثَّقَافَةِ واللَّقَافَةِ" (منظور)، و"غلام ثَقِفٌ لَقِفٌ،وثَقْفٌ لَقْفٌ، وقد ثَقُفَ ثَقَافَةً (...) ومن المجاز:أَدَّبه وثقَّفَهُ. ولولا تثقِيفك وتوقِيفك لما كنتُ شيئا، وهل تهذّبتُ وتثقَّفْتُ إلا على يدِك" (الزمخشري و عيون السود، 1998)، وعليه،يمكن استنتاج معاني الثقافة في النقاط الآتية: الحذق، والفطنة، والفهم، التأديب، والتهذيب.

بالإضافة إلى هذه المعاني توجد هناك معاني أخرى، وهي (شعيرة و غباري، 2015):

"–سرعه أخذ العلم وفهمه، نقول:ثَقِفَ الطالب العلم؛ أي فهمه بسرعة.

–تقويم المعْوَج من الأشياء، نقول: ثَقَّفَ الصانع الرمح؛ أي سوى اعوجاجه.

– إدراك الشيء والحصول عليه، كما أشار الله تعالى في قوله:"واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهُم".

1.1. 2. اصطلاحا:

إن لـ"الثقافة"في المعاجم العربية المعاصرة معان اصطلاحية كثيرة ومتنوعة أيضا،فهي:"– خَبر يُجمع ويُحافظ عليه وتتناقله المجتمعات الإنسانية.

– الثقافة علم أنماط الكودات التي تحدد عينة ثقافية معينة.

– يعتبر مفهوم الثقافة نسبيا وعالميا إذا ما عنينا به ثقافة مجتمع لساني مستقل.

– وتوجد (أجواء ثقافية)تخترق الحدود اللسانية كثقافة إنسانية كونية مطبوعة بالممارسة العلمية والتقنية وكذا بأيديولوجية مشتركة" (علوش، 1985).

" – رياضة الملكات البشرية بحيث تصبح أتمَّ نشاطا واستعدادا للإنجاز.

– ترقية العقل والأخلاق وتنمية الذوق السليم في الأدب والفنون الجميلة.

– إحدى مراحل التقدم في حضارة ما.

– السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات" (وهبة و المهندس، 1984).

إن المتأمل في المعاني السابقة يجد أن مصطلح "الثقافة":

– متوارث عبر الأجيال.

– لكل جماعة رموز ثقافية معينة تميزها عن غيرها.

– قد تكون الثقافة نسبية خاصة بمجتمع معين، وقد تكون كونية إنسانية.

– الثقافة تساهم في تنشيط وتطوير الملكات الإنسانية.

– كما أن الثقافة مرتبطة أشد الارتباط بـ "الحضارة" –منذ القدم وحتى الآن– في مظاهرها المادية والمعنوية، ولعل خير مثال يدعم ذلك التعريف الذي أورده "ابن خلدون"للثقافة حيث قال:"هي العمران الذي هو من صنع الإنسان بما قام به من جهد وفكر ونشاط يسد به النقص بين طبيعته الأولى، وخاصة في بيئته حتى يعيش عيشة عامره زاخرة بالأدوات والصناع" (شعيرة و غباري، 2015، صفحة 18)، وهنا نجد الثقافة مرتبطة بكل ما صنعه الإنسان من عمران وأدوات لتسهيل حياته وجعلها أكثر رفاهية بفضل إعمال الفكر، ويؤيده في ذلك،التعريف الذي أورده "الجابري" حين قال:"هي ذلك الكل المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتغييرات والإبداعات والتطلعات التي نحتفظ بها لجماعة بشرية" (شعيرة و غباري، 2015، صفحة 18)، وهنا نلاحظ أن الثقافة كلّ مكون من أجزاء يتم توريثها من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، وعليه تكون الثقافة ذات سمة تراكمية عبر العصور.

غير أن "مالك بن نبي" يرجح الجانب المعنوي في تعريفه للثقافة حين حصرها في مجمل الصفات والقيم التي يكتسبها الفرد من محيطه وتساهم في تكوين شخصيته، حيث يرى أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد من ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته" (بن نبي، مسقاوي، و شاهين، 1986) وهنا يتجلى تأثير الثقافة في سلوكيات الأفراد وشخصياتهم،

سواء أكان ذلك بالإيجاب أم بالسلب.

هذا عن ماهية الثقافة في التراث العربي، فماذا عن ماهيتها في التراث الغربي؟

1. 2 . ماهية الثقافة في التراث الغربي:

تعود الثقافة في جذورها المباشرة إلى كلمة (Cultura) التي تدل على عملية التهذيب والاعتناء والرعاية،وتتضمن معنى النمو والتطوير، ويتجلى ذلك في الاستخدام البستني المبكر، حيث كانت تدل على عمليه الاعتناء بالنباتات والحيوانات، والشيء نفسه عن الاستعمال العلمي المتأخر الذي يشير إلى التطوير الظاهري للأحياء المجهرية ونمو الخلايا والأنسجة النباتية والحيوانية، حيث تشير الثقافة أو الاستنبات (Culture) إلى طريقة معينة في النمو، وقد توسع هذا الاستعمال فيما بعد إلى الممارسات التي قد يسعى من خلالها الأفراد إلى تطوير أنفسهم وتنميتها،وبدءا من القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر واستمرارا حتى أواسط القرن العشرين صارت الثقافة تمثل عملية عامة من التنمية الاجتماعية بوصفها مصطلحا يتبادل المواقع مع الحضارة، فمن جهة الحضارة بوصفها معيارا للتقدم المادي كما يدل عليه تطور الإنتاج الصناعي، والثقافة من جهة أخرى بوصفها تجسيدا لمجموعة من المعايير العليا (بنيت و الغانمي، 2010).

وعليه، فقد ظهرت كلمة "ثقافة" في اللسان الفرنسي في أواخر القرن الثالث عشر، متحدّرة من اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل والماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروسة، وانتقلت في بداية القرن السادس عشر للدلالة على فعلٍ هو فلاحة الأرض، ليتكوّن المعنى المجازي لكلمة ثقافة في منتصف القرن السادس عشر،إذ أصبح يشير إلى تطوير كفاءة إلا أن هذا المعنى لم يدرج بكثرة حتى نهاية القرن السابع عشر، وقد بدأت كلمه ثقافة تفرض نفسها في معناها المجازي حيث تم إدراجها في القاموس الأكاديمي الفرنسي سنه 1718م، وهكذا كان يقال"ثقافة الفنون"، و"ثقافة العلوم"، وتدريجيا تحررت الثقافة من متمماتها المضافة واستعملت منفرده للتدليل على تكوين الفكر وتربيته (كوش و السعيداني، 2007).

إنّ المتأمل في معاني كلمة "ثقافة" في التراث الغربي يستنتج أنها قبل أن تصل إلى المعنى الذي هي عليه الآن قد شهدت عدة مفاهيم، وهي كالآتي:

- عملية التهذيب والاعتناء والرعاية بالنباتات والحيوانات؛ أي العناية الموكولة للحقل والماشية.
- الثقافة بمعنى الاستنبات؛ أي فلاحة الأرض.
- تطوير النفس وتنميتها؛ أي تطوير الكفاءات المختلفة.
- تكوين الفكر وتربيته.
- عملية عامة من التنمية الاجتماعية تتبادل المواقع مع الحضارة.

هذا وقد نظر علماء الأنثربولوجيا إلى "الثقافة" من زوايا مختلفة، وهذه بعض التعريفات المقدمة:

– تعريف "كلباتريك" (Kilpatrick):"هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من أشياء ومظاهر في البيئة الاجتماعية؛ أي كل ما اخترعه الإنسان أو ما اكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية".

– تعريف "كلكهوت" (Kluckhoha):"هي وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ السافر منها والمتضمن، العقلي واللا عقلي، التي توجد في وقت معين تكون وسائل إرشاد توجه سلوك الأفراد الإنسانيين في المجتمع" (شعيرة و غباري، 2015).

– تعريف " ريموند وليامز " (WilliamsR.):"طريقة معينة في الحياة سواء عند شعب أو فترة أو جماعة" (بنيت و الغانمي، 2010، صفحة 232).

– تعريف"ماثيو أرنولد" (Matthew Arnold): هي"دراسة الكمال والتي من شأنها أن تقود إلى كمال متناسق بتطويرها لكل جوانب إنسانيتنا ثم إلى كمال عام بتطويرها لكل أجزاء المجتمع. والناس يصبحون مثقفين باتّباعهم طريق الكمال" (هارلمبس و محسن، 2010)، إلي هو القراءة الفعالة.

من خلال هذه التعريفات يتضح أن الثقافة:

– شاملة لكل ما هو مادي وغير مادي.

– مرتبطة بالبيئة الاجتماعية.

– شاملة لكل ما ابتدعها لإنسان وليست فطرية.

– حصيلة ما توصل إليه الإنسان على مر التاريخ.

– لها دور في توجيه سلوك الأفراد.

– طريق كمال الإنسانية.

ولقد جَمل"كريستوفر جينز"أربعة معان رئيسة لمصطلح "ثقافة" مستنبطة من التعريفات السابقة، وهي (هارلمبس و محسن، 2010، الصفحات 7-8):

– الثقافة ينظر إليها أحيانا كحالة للفكر، فشخص ما يصبح مثقفا حين يتجه صعودا نحو فكرة الكمال أو الهدف أو الانعتاق أو إنجاز طموح إنساني، ومن هذه الزاوية تعتبر الثقافة كنوعية تكتسب من جانب الأفراد القادرين على التعلم وتحقيق الصفات المرغوبة لدى الكائن المثقف وهذا التعريف نجد صداه لدى بعض الكتاب مثل "ماثيو أرنولد".

– الثقافة شديدة الارتباط بفكرة الحضارة، حيث تكون بعض المجتمعات أكثر ثقافة وحضارة من المجتمعات

الأخرى، وهذه النظرة للثقافة تنقل بأفكار التطور مثل أفكار "هربرت سبنسر" الذي نظر إلى المجتمعات الغربية باعتبارها أكثر تطورا قياسا بغيرها من المجتمعات.

– الثقافة إطار جماعي للفنون والأعمال الذهنية لدى أي مجتمع منفرد، ووفق هذا التعريف يمكن العثور على الثقافة في المسارح وفي قاعات الاحتفالات، وصالات اللوحات الفنية الجميلة، والمكتبات العامة بدلا من الامتداد إلى كل مظاهر الحياة الاجتماعية للإنسان وبهذا المعنى يطلق على الثقافة أحيانا بالثقافة العليا.

– الثقافة بأنها أسلوب كامل في حياه الناس، وهذا التعريف جرى اعتماده من قبل "رالف لينتون"، حيث يؤكد أن ثقافة المجتمع هي طريقة حياة أفراده، وهي مجموعة الأفكار والعادات التي تعلموها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر، وهذا التعريف هو الذي تبناه معظم علماء الاجتماع المعاصرين.

إن كل هذه التعريفات المقدمة للثقافة توحي بمدى تعقيدها وغموضها واستعصائها عن إيجاد حد واحد موحد ودقيق لها، لذلك حتى نتمكن من معرفة ماهية الثقافة لا بد من الإلمام بكل ما قيل حولها لمعرفة جزئياتها المختلفة، ومميزاتها الخاصة، فما هي هذه المميزات؟

2 . مميزات الثقافة:

من خلال التعريفات المقدمة للثقافة سواء ما تعلق بالمفاهيم اللغوية أو الاصطلاحية، العربية منها والغربية تتجلى المميزات الآتية:

– الثقافة ميزة إنسانية محضة متعلقة بالجنس البشري؛ إذ ينتجها الإنسان ويكتسبها الإنسان فقط.

– الثقافة مادية ولا مادية/ معنوية؛ حيث يشمل الجانب المادي كل آثار ونتاجات الإنسان الملموسة وفي هذه الحال تكون أقرب إلى الحضارة ومظاهرها، أما المعنوي فيشمل كل ما تعلق بالجانب القيمي والمعرفي منها.

– الثقافة شاملة وكلية تتركب من أجزاء مختلفة لكنها مترابطة ارتباطا عضويا.

– الثقافة مكتسبة من الوسط الاجتماعي وليست فطرية.

– الثقافة حصيلة تراكمية تنتقل من جيل إلى جيل عبر العصور المختلفة.

– الثقافة قابلة للتطور والتغيير؛ فهي تتطور حسب مستجدات العصر من جهة، ومن جهة أخرى تؤثر في سلوكيات الأفراد وتصرفاتهم.

هذا عن مميزات الثقافة عموما، أما الثقافة الإسلامية فلها هي الأخرى ما يميزها، كونها منبثقة من التشريع الإسلامي، وهي (الجلي، 2010):

– الثقافة الإسلامية إنسانية النزعة والهدف؛ فهي لا تختص بفئة دون أخرى ولا جماعة دون أخرى، بل هي

للناس كافة مهما اختلفت مواطنهم وعقائدهم.

- هي ثقافة شاملة متكاملة تستوعب كل مجالات الحياة؛ لأنها تستمد مقوماتها من الدين الإسلامي الذي يستجيب لحاجات الإنسان جميعها، وينظم شؤون البشر كلها.
- إنها إيجابية وفاعلة؛ إذ هي ليست معارف باردة، ولا أفكار فلسفية مجردة، بل هي حقائق تتحول إلى واقع حسي تظهر آثاره في سلوك الإنسان.
- هي ثقافة واقعية ومثالية؛ تراعي واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، وتراعي واقع الإنسان من حيث هو مزدوج الطبيعة (جسم من طين وروح)، وتراعي قدرة الإنسان فلا تكلفه مالا يطيق، وغيرها.

هذا عن مميزات الثقافة عموما والثقافة الإسلامية خصوصا، فماذا عن أهميتها؟

3. مكانة "الثقافة" وأهميتها:

لقد حدث جدل كبير بين الباحثين حول قيمة كلمة "ثقافة" لما يعتريها من غموض وتنوع وتشعب، فهذا "ريموند ويليامز" ذات مرة يقول: "لا أعرف كم مرة تمنيت لو أنني لم أسمع بهذه الكلمة اللعينة"، وهو يعترف بأن صعوبتها كانت تتحدى مهام التحليل العادي، وتبنى "أدم كوبر" الرأي نفسه،إذ يرى أن الكلمة الآن أفرط في استعمالها حتى صار من الأفضل تقطيعها إلى أجزائها المكونة والحديث عن: المعتقدات، والأفكار، والفن، والتقاليد بدلا من توقع العثور على مجموعة من السمات المشتركة تجمع هذه معا كجزء من حقل الثقافة الأشمل، وقد أكد هذا الرأي"جيمس كليفورد" حين رأى أن الثقافة فكرة تتعرض للشبهات بعمق، لكن المرء لا يستطيع أن يعمل من دونها، كما تم الإعراب عن المصاعب حول قيمة كلمة الثقافة، فإن السياقات التي تظهر فيها هذه المفردة صارت تتضارب تضاربا استثنائيا في الآونة الأخيرة، وتظل بعض الاستعمالات قيد التداول من قبل:الثقافة العليا،والثقافة التراثية، والثقافة الجماهيرية، والثقافة الشعبية (بنيت و الغانمي، 2010، صفحة 225)، كما توجد إحالات أخرى إلى: الثقافات القومية، والثقافات المحلية، والثقافات التحتية، والثقافات المضادة، وثقافات النوادي، وثقافات الشوارع، وثقافات العقاقير، والثقافة الجسدية، وثقافة المستهلك، والثقافة الترفيعية، والثقافة المادية، وثقافة الرياضة، وثقافة الإعلام، والثقافة البصرية، والإمبريالية الثقافية، والإبادة الثقافية، والسياحة الثقافية،والمادية الثقافية، في لغات أكثر تخصصا وأكاديمية، حتى صارت جميع ميادين المعرفة توصف الآن بكونها ثقافية، وإن كانت الدراسات الثقافية والنقد الثقافي قد نالت الصدارة إلى جانب علم النفس الثقافي والتاريخ الثقافي والجغرافيا الثقافية والتطور الثقافي التي تابعتها كجزء من منعطف ثقافي أعم في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية (بنيت و الغانمي، 2010، الصفحات 226-227).

وأمام هذا الكم الهائل من الاستعمالات المرتبطة بالثقافة، والآراء التي أبديت حولها تتجلى مكانة "الثقافة" وأهميتها، حيث غزا الوصف "ثقافي" الاستعمالات اليومية التي شملت مختلف المجالات الحياتية: السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، والدراسات الأدبية والنقدية، والتاريخية المعاصرة، وغيرها من المجالات، وهذا التنوع الثقافي يفضي إلى التعدد في أنواع الثقافة، فما هي أهم أنواع الثقافة؟

4. أنواع الثقافة:

لقد حدد علماء الاجتماع أنواعا عديدة ومتنوعة للثقافة، بعضها مختلف، وبعضها الآخر متقارب، نذكر منها ما يأتي (هارلمبس و محسن، 2010، الصفحات 9-11):

4. 1. الثقافة العالية:

تطلق على المعطيات الثقافية ذات الخصوصية المتميزة بدرجه عالية من الرقي، فهي تعتبر من جانب الوسط الثقافي أعلى درجات إبداع الإنسان، فالأعمال الفنية ذات الحضور المستمر تعد مثالا على الثقافة العالية، وتتضمن أعمالا، مثل: الأوبرا، والسيمفونيات الكلاسيكية لـ"بيتهوفن" و"موزار"، واللوحات الفنية مثل لوحات "ليوناردو دافنشي"، وكذلك أعمال "شكسبير".

4. 2. ثقافة العامة:

وهي ثقافة الناس العاديين وخاصة أولئك الذين يعيشون في مجتمعات ما قبل الصناعة، فثقافة العامة تتكون ذاتيا وهي متجانسة، وتعكس مباشرة حياة وتجارب الأفراد، مثال ذلك: الأغاني التقليدية، والقصص المنتقلة من جيل إلى آخر، وينظر إلى هذا النوع من الثقافة باعتبارها أقل قيمة من الثقافة العالية، وتوصف بكونها لا تطمح أبدا لتكون فنا رغم أنها تُحترم وتُقبل كثقافة أصيلة وليست مفتعلة.

4. 3. ثقافة الجماهير:

إن المعارضين لهذه الثقافة يرون أنها أقل قيمة من ثقافة العامة، وإذا كانت الثقافة العامة ينظر إليها كصورة لما قبل الحداثة ولما قبل المجتمع الصناعي، فإن ثقافة الجماهير هي إفراز للمجتمعات الصناعية وهي بالضرورة إفراز للإعلام الواسع، ومثال ذلك: الأفلام ذات الطابع الشعبي، والمسلسلات التلفزيونية المحلية، وأشرطة موسيقى البوب. غير أن المنتقدين لهذه الثقافة يرون أنها تحط من قيمه الأفراد، وتحطم النسيج الاجتماعي، وإذا كانت الثقافة العامة يصنعها الناس العاديون، فإن ثقافة الجماهير تستهلك فقط من جانب الأفراد، وبهذه النظرة يصبح المشاهدون أعضاء سلبيين في المجتمع الجماهيري لا يستطيعون التفكير في أنفسهم.

4.4. الثقافة الشعبية:

وتستعمل بطريقة مشابهة للثقافة الجماهيرية، وتتضمن أي منتج ثقافي ينال إعجاب الناس العاديين ودون أن يستهدف إنجاز خبرات ثقافية، مثال ذلك: برامج tv وموسيقى البوب وأفلام الأسواق الكبيرة مثل: التيتانيك، وحرب النجوم، والروايات الشعبية مثل القصص البوليسية.

4. 5. الثقافة الفئوية:

قد استخدم هذا المصطلح بشكل كبير في علم الاجتماع، وهو يشير إلى مجموعه من الناس تشترك مع بعضها في مسالة ما (كأن تكون مصلحه مشتركه، أو مشكلة يواجهها جميع أفراد المجموعة، أو ممارسة، أو أسلوب مشترك) تتميز أفراد المجموعة بشكل واضح عن باقي أفراد المجتمع، ولقد استعمل مصطلح الفئوية كثيرا لدى العديد من الجماعات التي تعيش قريبة من بعضها ولها أسلوب مشترك، وكذلك بالنسبة لمجموعات الشباب الذين لديهم ذوق موسيقي مشترك ويتمتعون بالتسلية نفسها، والأفراد الذين يمارسون الطقوس الدينية نفسها، وأفراد العصابات وغيرها.

إن المتأمل في أنواع الثقافة هذه يجد أنها تخضع لمعايير مختلفة مثل:

- المستوى الفكري للأفراد، وبالتالي فهي ثقافة عالية أو عامية.
- درجة الانتشار، وبالتالي فهي فئوية.
- درجة الاستقبال، فهي شعبية، أو جماهيرية.

وهناك أنواع أخرى من الثقافة لم نتطرق إليها تكون مرتبطة بدرجة الهيمنة والسلطة، كالثقافة المركزية والثقافة الهامشية، وغيرها.

5. إدوارد برنات تايلور" (Edward Burnett Tylor) وكونية الثقافة:

يعود التعريف الإثنولوجي –الإثنولوجيا هي علم دراسة الإنسان ككائن ثقافي– الأول لـ "الثقافة" إلى العالم الأنثروبولوجي البريطاني "إدوارد برنات تايلر"، الذي قدم لها معنى واسعا؛ وشاملا؛إذ اعتبرها "هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات والتقاليد وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع" (كوش و السعيداني، 2007، صفحة 31)، وبالتالي يمكن القول:

- إن الثقافة بالنسبة لـ "تايلر" كل مركب من المادي واللامادي.
- الثقافة ذات طابع اجتماعي.
- إنها مكتسبة بطريقة تلقائية من المجتمع،كما أنها غير موروثة.

ويوافق "روبرت بيرستد" "تايلر" في نظرته الكونية الشمولية للثقافة حين رأى أنها "ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع" (جعفر، 2015)، وهذه الرؤية تؤكد أن الثقافة تشمل كل موروث جمعي للإنسانية.

غير أن "تايلر" في بداية حديثه عن "الثقافة"كان يتردد بين مفهومي "ثقافة" و"حضارة"، ثم فضل في النهاية كلمة "ثقافة"؛ لأنه أدرك أن كلمة"حضارة" تفقد خاصية المفهوم الإجرائي إذا ما طُبقت على المجتمعات البدائية،وذلك بفعل أصلها الاشتقاقي الذي يحيل على تكوين المدن،أما كلمة"ثقافة" فتتميز بكونها كلمة محايدة تمكّن من التفكير على نطاق الإنسانية كافة- بدائية أم متحضرة- كماكان يؤمن بقدرة الإنسان على التقدم، ولم يكن يشك في الوحدة النفسية للإنسانية والتي كانت تفسر ما يلاحظ من تماثلات بين مجتمعات شديدة التباين، ذلك أن الفكر البشري بالنسبة إليه يشتغل في ظروف متماثلة بطريقة متشابهة أينما كان (كوش و السعيداني، 2007، الصفحات 31-32).

بيد أن الإشكال الذي كان يسعى إلى حله هو المواءمة في تفسير واحد بين تطور الثقافة وكونيتها ضمن كتابه "الثقافة البدائية" الذي صدر سنه 1871م، ذلك المصنف الذي اعتبر مؤسِّسا للإثنولوجيا بوصفها علما مستقلا،حيث تساءل في عنوان المجلد الأول منه عن "أصول الثقافة وآليات تطورها"، وكان أول عالم إثنونولوجيا يعالج الظواهر الثقافية من منظور عام ونسقي،كما كان أول من حرص على دراسة الثقافة في المجتمعات بكل نماذجها وصورها المادية وحتى الجسدية،فعلى إثر إقامته في المكسيك فرغ من تدقيق منهجه في دراسة تطور الثقافة بتفحص البقايا الثقافية، حيث عاين تعايش عادات السالفين مع سمات ثقافية حديثة العهد، وتوصّل إلى أنه يتم التدرج صعودا إلى الكل الثقافي الأصلي وإعادة تركيبه،فاستنتج أن ثقافة الشعوب البدائية المعاصرة تمثل بصفه عامه الثقافة الأصلية الخاصة بالإنسانية، وكان المنهج الذي تبناه "تايلر" لتفحص البقايا هو المنهج المقارن، فحسب رأيه،أن دراسة الثقافات متفردة لا تستقيم من دون إقامة مقارنة بينها؛ لأن بعضها يرتبط ببعض،ولا يوجد اختلاف في الطبيعة بين البدائيين والمتحضرين، بل الاختلاف في درجه التقدم على طريق الثقافة (كوش و السعيداني، 2007، الصفحات 32-33).

وعليه فإن "تايلر" من أولئك العلماء الأنثربولوجيين الذين حاولوا أن يضعوا التنوع والتعدد في أساليب حياة المجتمعات في إطار نظريات عامة عالمية، مثل: مراحل التطور المشترك سواء في التفكير أو الأسلوب بين البشر (إركسن و عبد الغني، 2012)، ذلك؛ لأنه نظر إلى الثقافة نظرة كلية كونية، شاملة لجميع الإنسانية مهما اختلفت مواطنها؛ فهي مرتبطة ببعضها البعض بواسطة الثقافة الأصلية، ولعل المنهج المقارن الذي طبقه على بقايا الثقافات المعاصرة هو ما ساعده على ذلك، غير أن هناك من نظر إلى الثقافة نظرة مغايرة لما ذهب إليه "تايلر"، و"فرانز بوا" خير مثال على لك، فما هو تصوره للثقافة يا ترى؟

6. "فرانز بوا" (Franz Boas) ونسبية الثقافة:

إن النظرة إلى "الثقافة"على أنها "طريقة في الحياة" تدين في الجزء الأكبر من صياغتها المؤثرة المعاصرة إلى عمل **"فرانز بوا"** (بنيت و الغانمي، 2010، صفحة 232)، كما يدين علماء الأنثروبولوجيا له بالتصور الأنثروبولوجي المسمى بـ "النسبية الثقافية"، الذي اتخذه مبدأً منهجيا لدراسة الثقافة، فعند دراسة ثقافة ما كان يوصي بمقاربتها دون أفكار مسبقة، ودون تسليط للمقولات الخاصة بالباحث من أجل تأويلها، ودون مقارنة هذه الثقافة بثقافات أخرى،وينصح بالحذر والصبر والخطى الوئيدة في البحث؛لأنه كان يعي تعقيد كل نسق ثقافي، ويرى أن لا سبيل إلى الإلمام بكل هذا التعقيد إلا بتفحص هذا النسق في ذاته تفحصا منهجيا،وكان يتمسك بالاهتمام بالتفصيل إلى الحد الأقصى من أجل المعرفة الشاملة بالثقافة المدروسة قبل وضع أي استنتاج عام (كوش و السعيداني، 2007، صفحة 38).

بيد أنّ نظرية "النسبية الثقافية" التي طُوِّرت في القرن التاسع عشر على يد "بوا" انبثقت من رؤية "يوهان جوتفريد فون هردر" (Johann Gottfried Von Herder) الذي كان يؤمن بأن كل مجموعة بشرية لها خصائصها المتميزة، هذه النظرية مبنية على فكرة مفادها: أن الثقافات "محددة" و"مغلقة"؛ أي أن العالم مكون من "جزر ثقافية"، لكل جزيرة ثقافتها المميزة والمختلفة، وعلى الباحث الاجتماعي أن يدرس جميع الثقافات، وتُقيَّم من منطلقاتها وداخل أطرها الفكرية، لذلك كان "بوا" من الرافضين لفكرة أن الجينات هي المكونة للثقافة، ورفض نظريات "التطور الثقافي" التي تربط بين "العرق" من جهة و"الثقافة" من جهة أخرى وتمسَّك بنظريته القائلة: "يجب أن تعامل كل ثقافة من الثقافات على أن لها طابعا مميزا خاصا، ولكن، لها القيمة نفسها مثلها مثل أي ثقافة أخرى" (إركسن و عبد الغني، 2012، الصفحات 24-25)، فإثر ملاحظاته المباشرة والمطولة على الثقافات البدائية رأى أن الاختلاف الأساسي بين المجموعات البشرية ذو طبيعة ثقافية لا عرقية، وبالتالي، هو لا يرى أية صلة بين السمات الفيزيائية والسمات الذهنية، وأنه لا يوجد تباين طبيعي/ فيزيولوجي بين البدائيين والمتحضرين، بل توجد تباينات ثقافية وحسب، لذا فهو من الأوائل الذين تخلو عن مفهوم العرق في تفسير التصرفات البشرية (كوش و السعيداني، 2007، صفحة 35).

مع العلم أن الغرض من دراسة الثقافات لم يكن ترتيبها على سلم ثقافي له درجات مختلفة، بل، من أجل دراسة كل ثقافة على حدة لمعرفة الخصائص المميزة لكل منها، لذلك كانت دراسته لقبائل الإسكيمو القاطنة في الشمال الإمريكي والمسماة "اليانكي" كانت على أساس محاولة لفهم الواقع، على اعتبار أنهم أمريكيون شماليون وجب فهمهم على أساس أطرهم الفكرية الثقافية، وليس على أساس ثقافة الأمريكيين الآخرين (إركسن و عبد الغني، 2012، الصفحات 24-25).

لقد اتبع "بوا" في دراسته للثقافات المنهج "المونوغرافي" في الأنثربولوجيا (منهج البحث ذي الموضوع الواحد)؛ لأن كل ثقافة بالنسبة إليه "واحدة ومخصوصة"، حيث كان انتباهه منجذبا إلى ما يمثل فرادة ثقافة ما، فقبله لم تكن الثقافات المخصوصة أبدا موضوعا لمعالجه الباحثين معالجة لها بهذه الاستقلالية، ذلك أن كل ثقافة، بالنسبة إليه،تمثل كلية متفردة، وكان كل جهده منصبا على البحث فيما يصنع وحدتها، فلكل ثقافة أسلوب معين يعبر عن نفسه عبر: اللسان، والمعتقدات، والعادات، والفن وغيرها، حيث يؤثر هذا الأسلوب الخاص بكل ثقافة في تصرف الأفراد، لذلك كان يرى أن مهمة الإثنولوجيا هي الصلة الرابطة بين الفرد وثقافته (كوش و السعيداني، 2007، صفحة 40).

وعلى غرار "بوا" أثبت "كليفورد جيرتز" تأثير الثقافة في الأفراد وأهميتها لأنها "نظام للمعنى يشترك فيه أعضاء جماعة ما، وتحدد لهم الثقافة مجموعة الرموز التي يتفاهمون خلالها على الطريقة التي يديرون بها تفاعلاتهم وتحكم قواعد اللعبة الاجتماعية التي ينخرط فيها اللاعبون" (جعفر، 2015، صفحة 53)، وهنا نجد "جيرتز" يقر هو الآخر بفرادة الثقافة وارتباطها بجماعة معينة وأنها ليست واحدة مشتركة بين الإنسانية، فلكل جماعة ثقافتها الخاصة تزودها بمختلف الرموز التي تمكنها من التواصل فيما بينها بسهولة، كما تساهم في تحديد طريقة حياة الأفراد وتنظيم شؤونهم.

بناء على ما سبق، فـ "النسبية الثقافية"بصفتها مبدأ منهجيا وإبستيمولوجيا يفضي إلى تصور نسبي تخصيصي للثقافة؛لأن اختيار منهج ملاحظه كيان ثقافي معين ملاحظة مطولة ونسقية من دون أفكار مسبقة يفضي تدريجيا إلى اعتبار هذا الكيان كيانا مستقلا يؤكد كرامة كل ثقافة، ويدعو إلى احترام الثقافات المختلفة لطالما كانت كل ثقافة تعبر عن طريقة متفردة ليكون الإنسان إنسانا، فقد حق لها التقدير والحماية كلما كانت موضع تهديد (كوش و السعيداني، 2007، صفحة 41)، وعليه، فإن نظرة "بوا" هذه إلى الثقافة تفضي إلى وجود ثقافات بشرية متعددة مختلفة عن بعضها بدلا من ثقافة واحدة للإنسانية كما هو الحال عند "تايلر".

7. خاتمة:

من خلال ما تقدم خلص البحث إلى ما يأتي:

- إن المفاهيم المقدمة لمصطلح "الثقافة" قد اختلفت باختلاف السياقات من جهة، واختلاف الباحثين والأزمنة من جهة أخرى، لذلك نُعِت بأنه من المفاهيم المستعصية والمتشعبة.
- الثقافة مرتبطة أشد الارتباط بالحضارة، سواء كان ذلك عند العرب أو عند الغرب؛ لأنها تجسد طريقة حياة وتفكير الشعوب والجماعات عبر التاريخ.
- من أهم مميزات الثقافة: الإنسانية، الطبيعة المادية والمعنوية، الكلية والشمولية، الاكتساب، الارتباط بالوسط الاجتماعي، التراكمية، قابلية التطور والتغيير.

- من مميزات الثقافة الإسلامية أنها: إنسانية النزعة والهدف، شاملة ومتكاملة، إيجابية وفاعلة، واقعية ومثالية.
- للثقافة أهمية كبيرة، تتجلى من خلال ارتباطها بمختلف مجالات الحياة، وكذا آراء الباحثين وكثرة الدراسات حولها.
- صنفت أنواع الثقافة وفق معايير مختلفة منها: المستوى الفكري للأفراد، درجة الانتشار، درجة الاستقبال، الارتباط بالتطور الصناعي والتكنولوجي، درجة الارتباط بالسلطة.
- يعد "إدوارد تايلر" صاحب التعريف الإثنولوجي الأول لـ"الثقافة"، وهو الذي قدم لها معنى كليا شاملا.
- إن تردد "تايلر" في بداية دراساته عن "الثقافة" بين لفظتي "ثقافة" و"حضارة"، ثم تفضيله في النهاية مصطلح "ثقافة"، هدفه أن لا تفقد مفهومها الإجرائي وتصلح للحديث عن الشعوب البدائية والمتحضرة على حد سواء.
- كان "تايلر" يؤمن بالوحدة النفسية للإنسانية، وبالتالي فهو أول عالم إثنولوجي يعالج الظواهر الثقافية من منظور عام ونسقي.
- إن دراسة "تايلر" للثقافة في المجتمعات بكل صورها من خلال تفحص البقايا الثقافية للسالفين المتعايشة مع سمات ثقافية جديدة، جعلته يستنتج أن ثقافة الشعوب البدائية المعاصرة تمثل الثقافة الأصلية للإنسانية.
- إن وجهة نظر "تايلر" إلى الثقافات على أنها مرتبطة ببعضها، وتأكيده على كونية الثقافة، جعله يعتمد على المنهج المقارن.
- نظرية "النسبية الثقافية" للعالم "فرانز بوا"، تركز على الاهتمام بكل التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالثقافة المدروسة قبل الوصول إلى أي استنتاج عام.
- إن تقييم "بوا" للثقافات من منطلقاتها وداخل أطرها الفكرية جعله يرفض نظريات "التطور الثقافي" التي تربط بين "العرق" و"الثقافة".

إن السبب الذي جعل "بوا" يتبع المنهج "المونوغرافي"في مقاربته للثقافات هو اعتقاده الراسخ بأن كل ثقافة "واحدة ومخصوصة"، "محددة"و"مغلقة"، وبالتالي البحث عما يمثل فرادتها واستقلاليتها، وذلك ما يثبت كرامة كل ثقافة.

ونحن نقول: حقيقة أن فصل الثقافات عن بعضها البعض يمجّد ويعظم كل ثقافة على حدة ويثبت تميزها وتفردها، ولكن بالمقابل، هذا لا يمنعنا من الإقرار بأنه لا يمكن اكتشاف قيمة أية ثقافة دون مقارنتها بثقافات أخرى،بل، لا يمكن لأية ثقافة أن تتطور وترتقي دون التلاقح مع ثقافات أخرى، وما دام الجنس البشري أصله الأول واحد فمن المن المؤكد أن الثقافة الأصلية واحدة، مهما تنوعت الثقافات عبر العصور فتبقى مجرد ثقافات فرعية انبثقت عن الثقافة الأم.

8- مراجع البحث :

1. ابن منظور. *لسان العرب* (المجلد 1). القاهرة: دار المعارف.

2 ا.لجلي ,أ .م .(2010) .*دراسات في الثقافة الإسلامية)المصادر، الأسس، الخصائص، التحديات* .(Vol. 2) (الإمارات العربية المتحدة :دار الكتاب الجامعي.

3 .الزمخشري، و باسل عيون السود. (1998). *أسرار البلاغة* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

4 .الفيروز آبادي. (2005). *القاموس المحيط* (المجلد 8). بيروت: مؤسسة الرسالةللطباعة والنشر والتوزيع.

5. توماس هيلاند إركسن، و محي الدين عبد الغني. (2012). *مفترق طرق الثقافات (مقالات عن الكريولية)* (المجلد 1). مصر: المركز القومي للترجمة.

6 .خالد محمد أبو شعيرة، و ثائى أحمد غباري. (2015). *الثقافة وعناصرها* (المجلد 1). عمان: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.

7 .دنيس كوش، و منير السعيداني. (2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية* (المجلد 1). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

8 .سعيد علوش. (1985). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة* (المجلد 1). لبنان: دار الكتاب اللبناني.

9. طوني بنيت، و سعيد الغانمي. (2010). *مفاتيح اضطلاحية جديدة (معجم مضطلحات الثقافة والمجتمع)* (المجلد 1). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

10 .عدالة جعفر. (2015). *ثقافة الأوسكار وصناعة الهيمنة الأمريكية* (المجلد 1). وهران: مجلة آفاق سنيمائية.

11 .مالك بن نبي، عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين. (1986). *مشكلات الحضارة (شروط النهضة)*. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.

12. مجدي وهبة، و كامل المهندس. (1984). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب* (المجلد 2). بيروت: مكتبة لبنان.

13. هولبرن هارلمبس، و حميد محسن. (2010). *سوشيولوجيا الثقافة* (المجلد 1). دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.